مدن عربية : ٣

# بغداد

عبد الواحد لؤلؤة

« بغداد ، يا بلد الرشيد ، ومنارة المجد التليد ! »

من هنا تبدأ المشكلة . فان الكثرة الكاثرة من الناس اذا ذكرت لهم بغداد ، تطافرت امام مخيلاتهم صور شتى وخيالات عديدة عن منارة المجد التليد هذه، وعاد الرشيد وجواريه ولياليه الالف وما زاد عليها هي الصورة التي تطغى على الصور جميعا. ولا ينطبق هذا على السياح من ذوي القلوب الطيبة وحدهم ، وانما ينطبق الى مدى غير يسير على آخرين من الناس خارج العراق ، رغم ادعائهم بان افلام هوليوود لا تؤثر عليهم كثيرا ، بما تقدمه لهم عن « علي بابا والاربعين حرامي » او عن « المصباح السحري » او « حرامي بغداد » وغير ذلك ، لانها مجرد افلام ، مجالها الوحيد هو السينما ، وليس واقع الحياة في بغداد اليوم ، ولا حتى بغداد الامس في كثير من الاحوال .

ولكن اين هي بغداد الامس ؟ متى بدأ هذا الامس ومتى انتهى ؟

نقرأ في كتب التاريخ القديم ان البحر كان يغمر ارض العراق في الالف السادس قبل الميلاد ويغطي المنطقة من جنوبي سامراء على دجلة وهيت على الفرات . ولما انحسرت المياه خلفت وراءها سهولا رسوبية خصبة عرفت فيما بعد بارض السواد . وفي هذه المنطقة شيدت مدن شهيرة من مدن العالم القديم ، استهوت بمواقعها كثيرا من اطماع البلاد المجاورة، ومن بلاد غيرها بعيدة . ففي هذه المنطقة نهضت بابل، واطلالها اليوم على بعد حوالي ستين كيلومترا الى الجنوب الغربي من بغداد. والى هذه الاراضي كان نفوذ الفرس يمتد حينا وينحسر حينا آخر. في هذه الارض اقام الفرس الساسانيون مدينة طيسفون لتكون عاصمة شتائية لهم . وهنا كذلك اقام خلفاء الاسكندر مدينة سلوقية مقابل طيسفون التي سماها العرب المدائن ، وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد . ولا تزال آثار هاتين المدينتين قائمة الى اليوم. وفي هذه الارض اقام الفرس مركزا تجاريا سنويا لهم كان اسمه « سوق بغداد » ، يقع على دجلة . وليس الاسم « بغداد » مما ظهر مع المدينة. بل انه اسم قديم يرقى الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وكان معروفا في زمن حمورابي الذي عاصر ابراهيم الخليل . وقد استمر الاسم باشكال مختلفة ، ربما كان آخرها ، قبلما شاد المنصور مدينته، هو الاسم الذي اطلقه الفرس على قرية على دجلة لتكون سوقا تعرض فيها البضائع والسلع ويحمل اليها الحرير

والذهب . وكان اول عهد العرب المسلمين بهذا الاسم ما نقله عرب الحيرة من « امر سوق عظيم للفرس يقال له سوق بغداد » ، وذلك عند وصول المثنى بن حارثة الشيباني الى الحيرة عام ١٣ للهجرة في خلافة ابي بكر . فاغار المثنى على الفرس في يوم سوقهم « وامر رجاله الا يأخذوا غير الذهب والفضة مما تحمله دوابهم » ، فاصاب المسلمون ذلك اليوم غنائم عظيمة . واستمرت الفتوحات الاسلامية في ارض السواد، وقاتل العرب المسلمون الاعاجم، فجهز عمر بن الخطاب حملة على طيسفون ففتحها وانحسر بذلك سلطان الساسانيين عن العراق بزوال ملكهم ، ولم يبق من آثار طيسفون اليوم سوى « طاق كسرى » قريبا من بلدة سلمان بك الحالية ، وهي مرقد الصحابي سلمان الفارسي الانصاري. وفي هذا التاريخ بدأت المنطقة جميعا تتسم بطابع عربي اسلامي ، وربما كانت هذه المنطقة اهم بقاع العالم القديم ، اذ كانت مركزا حربيا واقتصاديا وتجاريا لوقوعه وسط مراكز المدنيات البابلية والاشورية والكيشية واليونانية والفارسية . وكل هذا كان في ذهن اللجنة الاستشارية التي شكلها المنصور لتختار له مكانا ملائما لاقامة عاصمة عظيمة تليق بعظمة الخلافة العباسية . وبالرغم من ان المناذرة اقاموا في هذه البلاد عاصمة لهم في الحيرة ، فان عروبتهم لم تكن بعيدة عن تأثير الفرس في تصريف شؤون الدولة ! على الاقل كان هذا التأثير ملموسا في استعدائهم على الغساسنة الذين كانوا يعتمدون في بعض شؤونهم على الروم . وبالرغم من ان معركة القادسية وضعت حدا فاصلا للنفوذ الفارسي، وذلك عام ٦٣٦، فان النفوذ الفارسي بقي ملموسا على الصعيد الثقافي . فكانت النقود الفارسية هي المتداولة في سواد العراق ، وكانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية في سجلات الدولة ، حتى جاء الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، فابدل النقود الفارسية بنقود عربية اسلامية ، وجعل اللغة العربية مكان اللغة الفارسية في المكاتبات الرسمية والوثائق .

فعروبة المنطقة التي شيدت عليها بغداد، اذاً ، كانت طيلة تاريخها الطويل عرضة للنفوذ الاجنبي وعلى الاخص من بلاد فارس . ولكن الخلفاء العرب كانوا يعملون جهدهم لتعريب هذه المنطقة بشتى الوسائل . ولما كان الدين في القرون الوسطى هو اهم عامل يجمع بين الناس او يفرق بينهم، رأينا ان الدين الاسلامي الذي اعتنقه الفرس كان عاملا مهما جمع بين الفرس والعرب على اكثر من صعيد. فلا غرابة، اذاً، ان نجد التأثير الفارسي يواكب بغداد منذ نشوئها ويظهر بشكل او بآخر في مختلف العصور .

رغب ابو جعفر المنصور ، ثاني خلفاء بني العباس ، في اقامة عاصمة لملكه في سواد العراق ، فاختار موضعا على دجلة يبعد بضعة اميال فوق طيسفون . وهنا نجد ان النهر يلعب اكبر دور في حياة المدينة ، وفي موتها كذلك . ودجلة وما كان يتفرع عنه من الماء كان هو الذي جعل الله منه كل شيء حي . وكان نفر من المسلمين العرب يسكن منطقة على

ضفة دجلة الغربية يقال لها «مزرعة المباركة»، هي عين المنطقة التي اختارها المنصور ليشيد عليها « المدينة المدورة » بعد تعويض اصحاب المباركة عن قيمة اراضيهم . ولم يبقَ اليوم من المدينة المدورة سوى بعض آثار مجاري المياه التي كانت تستخدم في ريّ الاراضي التي تقوم عليها المدينة ، وغير بعض المساجد التي لعبت بها ايدي البلى . ولكن المدينة المدورة اتسعت فشملت قرية الكرخ ، التي يذكر ان مؤسسها هو الملك الساساني سابور الثاني ( ٣٠٩ – ٣٧٩ ) الذي يطلق عليه العرب اسم « سابور ذي الاكتاف » ، ويطلق اسم الكرخ في الوقت الحاضر على الجانب الغربي من دجلة باجمعه ، وهو القسم الاصغر من بغداد الحالية . وقد اختلف الباحثون في معنى تسمية الكرخ . فمنهم من قال انها كلمة آرامية تفيد معنى « اوصل الماء » ، ومنهم من قال انها من اصل يوناني يفيد « المدينة المسورة » . ولكن مدينة المنصور المدورة صار يطلق عليها اسم بغداد ، مأخوذا من قرية سوق بغداد القريبة ، رغم محاولات الخليفة في استبدال الاسم وجعله « دار السلام » . وقد اراد المنصور بتبديل الاسم ان تكسب المدينة اسما عربيا اسلاميا ، وذلك تيمنا بالآية الكريمة: «والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم » ( سورة يونس : ٢٦ ) . ولكن يظهر ان حكم العادة كان اقوى من محاولات المنصور ، فلا اسم المدينة المدورة ولا دار السلام استطاعا ان يثنيا الناس عن اتخاذ التسمية الفارسية . يحكى ان رجلا دخل على قوم في مجلس، فسأله احدهم من اي البلاد جاء ، فقال من بغداد، فقيل له « لا تقل بغداد، فان ( بغ ) صنم و ( داد ) اعطى . ولكن قل مدينة السلام ، فان الله هو السلام والمدن كلها له » . وقد اختلف الرواة في اصل تسمية بغداد، فمنهم من قال ان « باغ » معناها اله و « داد » معناها عطية ، فيكون معنى بغداد « عطية الاله »، ومنهم من قال ان « باغ » معناها اله و « داد » تفيد معنى البستان ، فيكون اسم بغداد معناه « بستان الاله » . ومهما يكن من امر الاختلاف في معنى التسمية ، فان التفاسير كلها تشير الى اسم اله وثني وتسمية فارسية ، وهذا هو الذي جعل المنصور يحاول ايجاد تسمية اسلامية عربية لتقوم مقام التسمية الوثنية الفارسية . وكان من جملة مساعي المنصور في ذلك انه ضرب على النقود اسم دار السلام بعد بناء المدينة بسنوات قليلة . ورغم كل هذا بقي الاسم الفارسي هو الاقوى والاشيع استعمالا حتى يومنا هذا .

كان للمدينة المدورة سور ضخم يحيط بها وخندق واربعة ابواب ، وقد شرع ببنائها عام ١٤٥ هـ ( ٧٦٢ م ) ، وتقدر مساحتها يومئذ بثلاثة كيلو مترات مربعة، ومكانها يقع اليوم بالتقريب الى جنوبي الكاظمية على دجلة . ولما تم بناء المدينة المدورة ونقلت اليها دواوين الحكومة بدأ الناس يسكنونها ، ثم اتسع العمران تدريجا حتى شمل ضفة دجلة الشرقية . وقد بدأ العمران جنوبي مقبرة الخيزران حيث مرقد الامام الاعظم ابو حنيفة

النعمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ ( ٧٦٧ م ) وكان احد القائمين على بناء مدينة المنصور. ثم اتصل العمران تدريجا حتى اصبحت بغداد الشرقية تضاهي المدينة المدورة، وخصوصا في القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، فانتقلت اليهـا دار الوزارة العباسية ، كما انتقلت دار الخلافة الى الجنوب مع دواوين الدولة وقصور الخلفاء . ثم انشىء سور حولها وحول الدور له اربعة ابواب ما زالت آثار احدها قائمة في بغداد اليوم ، واسمه الباب الوسطاني . هذا بالاضافة الى مرقد الامام الاعظم الذي اتسعت حوله رقعة العمران ، فشكل مدينة الاعظمية التي تتصل اليوم ببغداد اتصالا عضويا . ونتيجة لهذا الاتساع في رقعة المدينة زادت مساحتها في القرن التاسع الميلادي فبلغت اربعة وسبعين كيلومترا مربعا بعد ان كانت مساحة مدينة المنصور ثلاثة كيلو مترات مربعة ، وزاد عدد نفوسها حتى بلغ حوالي مليون نسمة في عهد الخليفة المعتضد . وبذلك صارت بغداد تعد من اعظم مدن العالم في القرون الوسطى ، فقد فاقت القسطنطينية عاصمة البيزنطيين ودمشق عاصمة الامويين ، ولم تضاهها المدن الاخرى كقرطبة والقاهرة. وربما جاز بعد ذلك للشاعر العراقي المتوفى حديثا الشيخ محمد رضا الشبيبي ان يسميها « منارة المجد التليد » ، فقد عاشت المدينة ٥١٤ سنة هجرية ، حكم فيها اربعون خليفة عباسيا ، سبعة منهم اتخذوا سامراء عاصمة لملكهم مدى نصف قرن ونيف . ولكن منارة المجد التليد هذه انتهى امرها في اواسط القرن الثالث عشر للميلاد وذلك على يد هولاكو عام ١٢٥٨ . وبين ذلك التاريخ وعام ١٩١٧ راحت بغداد تغط في ستة قرون ونصف من العصور المظلمة ، في حين كانت اوربا تخرج من عصورهـا المظلمة وتدخل عصر النهضة والاستكشافات الجغرافية والاستيطان في العالم الجديد. وقد توالت على بغداد ويلات ونكبات وفيضانات وطواعين قلمـا تعرضت لها مدينة من مدن العالم القديم او الجديد . فبعد ان سقطت بغداد على يد هولاكو ظهر ان مـا بقي منها لم يكن كافيا ليقتتل عليه ملوك وامراء . فقد قتل هولاكو حوالي سبعمائة الف نسمة من سكانها المليون ، واحرق دور العلم ودمر القصور والقى بمحتويات خزائن الكتب في دجلة، حتى ان النهر سال اسود عدة ايام لكثرة ما القي فيه من كتب ومخطوطات . ومع ذلك كله فقد تعاقب على حكم بغداد امراء جلائريون ، وحكام من اسرة « الخروف الاسود »، اعقبهم آخرون من اسرة «الخروف الابيض»، ثم جاء بعدهم الصفويون الفرس ثم العثمانيون وبعدهم الصفويون مرة ثانية . ثم عـاد العثمانيون عام ١٦٣٨ بقيادة السلطان مراد الرابع وبقوا حتى الاحتلال البريطاني في ١٩١٧ .

ان عظمة بغداد في ادوارها العباسية الاولى لم يكن يضاهيها في القوة سوى الدرك الاسفل الذي هوت اليه المدينة في عهود السلاجقة والاتراك العثمانيين . ففي عصور بغداد

الذهبية ايام الرشيد والمأمون كانت المدينة قد بلغت اوجها من الناحية الحضارية . فقد اسس الرشيد « دار الحكمة » وهي اكبر مجمع علمي عرفته العصور الوسطى ، اذ كان يجتمع فيه كل يوم علماء في شتى ضروب المعرفة ، يترجمون ويطالعون ويتناظرون . وهنا ترجم ارسطو الى العربية وترجم ابقراط وغيره من فلاسفة الاغريق وعلمائها . وفي عام ٨٠٧ ارسل الملك شارلمان عاهل فرنسا يطلب الى الرشيد السماح للحجاج الفرنسيين بزيارة بيت القدس . فكرم الرشيد وفادة البعثة الفرنسية واهدى الى مليكهم سرداق حرير من صنع بغداد وساعة دقاقة كبيرة اعجبت كل من شاهدها . وفي عهد المأمون بلغت المعاهد العلمية ٣٣٢ عددا ، تتشرب المعرفة لا يضيرها من اي وعاء خرجت . وكان حنين بن اسحق من اكبر المقربين الى المأمون لانه كان يتقن اربع لغات ، فولاه الخليفة رئاسة ديوان الترجمة ، وكان يعطيه زنة ما يترجمه ذهبا، فكان حنين « يختار لكتبه اغلظ الورق، ويأمر كتّابه ان يخطوها بالحروف الكبيرة ويفسحوا بين السطور » . وقد نقل حنين الى العربية امهات الكتب الفارسية والسريانية واليونانية . ولم يكن علماء بغداد نقلة فحسب ، بل زادوا على ما نقلوه من علوم الاولين. وكم من كتاب كتبه علماء الاغريق وضاع بسقوط القسطنطينية، ولكن الترجمة العربية هي التي حفظت تراث الاغارقة من الضياع ، فعادت اوربا في نهضتها تنهل من العلوم القديمة بكؤوس بغدادية .

وفي عهد الخليفة بهاء الدولة بنيت « دار العلم » سنة ٩٩١ ، واجتمع فيها اكثر من عشرة آلاف كتاب نفيس . وكانت « دار العلم » في الجانب الغربي من بغداد ، وقد اقام بها الفيلسوف الشاعر ابو العلاء المعري حين سكن بغداد . ولكن طغرل بك، اول الملوك السلجوقيين ، احرق هذه المكتبة النفيسة عام ١٠٦٨ .

وقد صاحب ازدهار الحضارة ببغداد القرون الوسطى ازدهار آخر في المدنية ، ذلك الجانب المادي للحضارة . فقصر الرصافة الذي بناه الرشيد في بغداد الشرقية كان هو المسؤول الاول عن « الف ليلة وليلة » . وكانت الى جانب دور الخلافة في الرصافة دور اخرى للحريم. ويذكر مؤلف « تقويم البلدان » ان الحريم كان يشغل ثلث مساحة بغداد في عصر الرشيد وكان له سور شرقي دجلة. وقد استمر ازدهار الحضارة الى جانب ازدهار المدنية في اغلب العصور العباسية . ولكن في العصور المتأخرة ، وخصوصا في الدور البويهي ، ازدهرت المدنية على حساب الحضارة . فبالرغم من ان دجلة طغى وتجبر واغرق المدينة في عهد الخليفة المطيع ، نرى الخليفة يبني « دار الطواويس » عام ٩٧٤ ويجمع فيها « كل ما حمل اليه من بلاد الهند من غريب الطير » . وقبل ذلك في عام ٩٢٨ تغرق بغداد وتنهدم المنازل على شاطىء دجلة ، ولكننا نرى الخليفة العباس بعد ذلك باربع سنوات يبني « حيز الوحوش » اي حديقة الحيوان .

يظهر ان في مدينة بغداد شيئا من روح العنقاء ، التي تعود الى الحياة في وسط رماد النار التي احرقتها . فكما ان دجلة هو عصب الحياة المحرك في بغداد في اغلب ادوارها ، نجده كذلك عنصر خراب وتدمير للمدينة لكثرة فيضانه . فبين عامي ٩٠٤ و ١٩٥٤ شهدت المدينة اثنين وثلاثين فيضانا كاسحا ، كان اثنان منها مصحوبين بانتشار الطاعون ، وذلك في العهد العثماني في عامي ١٨٢٢ و ١٨٣١ . وفي كل فيضان ، الى جانب انهدام المنازل ، كانت تنهدم اسوار المدينة ، او يتصدع المارستان العضدي ، او يغرق حريم الخلافة ، ويحدث هذا مرة كل جيل . ومع ذلك كله عرفت بغداد في عصورها العباسية اربعاً وثلاثين مدرسة ، وفي العهد المغولي اربع عشرة . وكان فيها ١٩ دار علم اي مكتبة عامة ، ولا يدخل في هذا العدد بالطبع المكتبات الخاصة . وكان ببغداد ٤٧ محلة سكنى و ١٥٨ جامعا و ٦٥ ربطا وزاوية . وكان فيها فوق ذلك كله المدرسة المستنصرية التي بنيت عام ١٢٣٢ وكانت من اقدم جامعات العالم القديم ، ولم تكن جامعة اكسفورد اقدم منها باكثر من قرن واحد . وكانت المستنصرية اول جامعة في الاسلام الحقت بها دار للقرآن ، ودار للحديث ، ومدرسة للطب ، الى جانب الاقسام العلمية الاخرى كالفقه والعربية والرياضيات . وهي اول جامعة اسلامية جمعت فيها المذاهب الفقهية الاربعة في بناية واحدة ، ثم اخذت المدارس تحذو حذوها ، كما يذكر الاستاذ ناجي معروف .

ولكن تدمير هولاكو كان اعظم من كل ما تقدم ، فلم تعش هذه الجامعة العظيمة اكثر من ستة وعشرين عاما ، ثم دمرها المغول ، وبعد ذلك عصف بها تيمورلنك عام ١٣٩٢ . وباحتلال الاتراك لها عام ١٦٣٨ دخلت بغداد طورا جديدا من الخراب ، هو دور الاهمال لكل معالم الحضارة ، فما بقي من معالم القديم كان بحاجة الى اصلاح وترميم ، ولكن ذلك لم يحظَ بعناية الولاة العثمانيين في الاعم الاغلب . فقد كان العراق ، او ولاية بغداد ، في العهد العثماني ولاية تتمتع باستقلال اداري ، يحكمها والٍ مركزه بغداد ولكن سطوته تمتد الى انحاء القطر كافة . وكان ذلك مما يخيف السلطنة العثمانية ويجعلها تحسب لولاية بغداد الف حساب. وكان احسن سبيل لتجنب المشاكل في اطراف السلطنة العثمانية هو استبدال والي بغداد في فترات قصيرة ، وكان ذلك بمعدل والٍ واحد كل ثلاثة اعوام . وهناك حالات كان فيها الوالي يتسلم الولاية فلا يلبث ان يستبدل بعد بضعة ايام . وكان الوالي بطبيعة الحال يعنى بامور نفسه ومركزه بالدرجة الاولى ويبذل جهده في جمع الاموال واستغلال هذه الفرصة قبل ان يطاح به ويؤتى بغيره . فلم يكن للحضارة ولا لمظاهر الثقافة ان تعيش في مثل هذه الظروف .

اذا كان هذا كله قد حدث للمدينة فماذا يرتجى ان يبقى من معالمها القديمة ؟ وماذا عن

البغاددة انفسهم ؟ انهم « في غمرة هذه الاحداث والكوارث لم ينسوا ، بما لهم من مجد قليد ، ان يفخروا ان مدينتهم كانت عاصمة الامبراطورية العباسية العظيمة ، وانهم لم يستطيعوا ان يرتضوا لانفسهم ان يرمي بهم الدهر على هامش الاحداث ، ولم يكن من اليسير على كبريائهم ان ترتضي بتحول عاصمتهم الى ما يشبه احدى مدن الاقاليم . وهذا ما يفسر لنا خلقهم المضطرب ، الثائر ، الذي برهن عليه كثير مما قاموا به من احداث » . والاحداث التي قام بها البغاددة منذ ان بدأت مدينتهم بالاضمحلال على ايدي الغزاة من كل صوب هي مساعٍ منوعة للتخلص من حكم الاجنبي ، استمرت زمنا طويلا جدا ، ولكنها لم تؤتِ نتائج ملموسة حتى النصف الثاني من القرن العشرين . ذكر مستشرق فرنسي في مطلع القرن الماضي ان اهل بغداد « ذوو كرامة ، نشيطون ، فعالون ، ميالون الى العناد ، غير انهم في حياتهم الاعتيادية مهذبون ، فكهون ، كرماء ، دأبهم الاحسان الى الغرباء ، لا ينفكون يعاملونهم برعاية واكرام . اما العامة فكانوا جهلاء جفاة ، وقاحا يعتقدون بالخرافات ، افسدتهم البطالة والمجون » .

هذا ما قاله المستشرق في اهل بغداد قبل قرن ونصف قرن ، وهناك من يرى ان هذا الوصف ينطبق على بغاددة اليوم الى حد كبير . ولكن اين بغداد اليوم من بغداد الامس ؟

لم يبقَ من بغداد العباسية ، ولا المغولية ، ولا الفارسية ، ولا العثمانية ، الا آثار دارسة . فما عدا بقايا « الباب الوسطاني » و « باب الطلسم » من ابواب اسوار بغداد الشرقية ، هناك المدرسة المستنصرية التي اعيد ترميمها ، وهناك مئذنة جامع الخلفاء الذي تعيد الدولة بناءه الآن ، وهناك بعض ابنية سراي الحكومة . وما سوى ذلك فهو بقايا جوامع من عصور مختلفة لا تستوقف المشاهد الا قليلا . اما مدينة بغداد هذه الايام فهي « مدينة طويلة » تبدأ من اقصى الشمال وتنتهي في اقصى الجنوب على ضفة دجلة الشرقية ، وهي القسم الاهم من المدينة . ويخترق جانب الرصافة هذا اربعة شوارع رئيسية توازي النهر من الشمال الى الجنوب . وعلى شاطىء دجلة الغربي يقع نصف المدينة الاصغر ، الذي لا يزال يحمل اسم الكرخ ، ولكن حركة العمران فيه تهدد ان يكون هو القسم الاكبر من بغداد عما قريب . وفي اقصى شمالي بغداد تقع مدينة الاعظمية ، نسبة الى الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان ، وهي اشبه بامتداد للرصافة الحالية ، بل هي بقايا الرصافة العباسية . وعلى ضفة النهر الغربية تقع مدينة الكاظمية التي نمت حول مقابر قريش زمن العباسيين ، كما نمت الاعظمية حول مقابر الخيزران في نفس العهد . واهمية الكاظمية انها تضم رفات الامامين موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد ، وهما السابع والتاسع من ائمة الشيعة . وكل سكان الكاظمية تقريبا من الشيعة ، كما ان كل سكان الاعظمية تقريبا من السنة . ولكن الكاظمية تعد مركزا للايرانيين في العراق لوجود مشهد الكاظمين فيها . وتشتهر

الكاظمية كذلك بقبابها ومنائرها المذهبة. وتزين مدخل جامع الامـام الاعظم في الوقت الحاضر ساعة على برج عال ، تبعث دقاتها في هدأة الليل شعورا في النفس لا يحسه سكان غير الاعظمية ، وذلك لعدم وجود الساعات الدقاقة في مناطق السكن بالمدينة .

تشغل بغداد اليوم رقعة من الارض تبلغ مساحتها ٨١٠ كيلو مترات مربعة ، وهي اربعة اضعـاف مساحتها ١٩٥٦ واكثر من عشرة اضعاف مساحتها في ازهى العصور العباسية ، واكبر بمائتين وسبعين مرة من مساحة المدينة المدورة . ولكن سكانها لا يكادون يزيدون كثيرا عن عددهم في العصور العباسية الذهبية ، فهم لا يكادون يبلغون مليون نسمة في مدينة بغداد ما عدا الاقضية والقصبات . والملاحظ في بغداد اليوم ان حركة عارمة في البناء اخذت تشمل اغلب اراضيها في جميع الاتجاهات . فهناك « مدينة المأمون » في جانب الكرخ جنوبي الكاظمية ، وقد بدأ عمرانها يتصل بالكرخ نفسها . وهناك « مدينة المنصور » جوار المأمون . وهناك « بغداد الجديدة » في اقصى الجنوب الشرقي ، قرب تل حرمل حيث عثر على اقدم اثر بابلي لنصوص شريعة سابقـة لشريعة حمورابي بقرنين من الزمان . وفي بغداد اليوم طرق معبدة طولها ٤٨٠٠ كيلو مترا. وفيها ستون الف سيارة عدا سيارات النقل والباصات. ولا يزال فيها ثلاثمائة عربة خيل تستعمل في المواصلات ، مثل سيارات الاجرة ، ولكن مجال عملها محدودة . وفي بغداد اكثر من ثمانيمائة مدرسة ابتدائية ، ومائتا مدرسة ثانوية ، واكثر من ثلاثين من المعـــاهد العالية . وانشأت جامعة بغداد فروعا لها في الموصل والبصرة . وفي بغداد حوالي ثلاثين كنيسة مسيحية، ولكن طابع المدينة اسلامي عربي ، تنتشر فيهـا الجوامع والمساجد وترتفع في سمائها المآذن والقبـاب التي قلّ ان نجد اثنتين منهـا يجمعهما وجه شبه . وفي المدينة ستة جسور ضخمة تربط الرصـافة بالكرخ ، سادسهـا جسر معلق في منطقة كرادة مريم . وهناك جسران آخران سوف يباشر بهما قريبا ، هما جسر الدورة وجسر الباب المعظم . وفي بغداد اليوم واحد واربعون حماما ، وهذا رقم تافه اذا مـا قورن بما ذكره بعض المؤرخين من ان بغداد العباسية كان بها الف الف حمام !

ماذا يعمل الناس في هذه المدينة الصاخبة ؟

شارع الرشيد يخترق الرصـافة من باب المعظم في الشمال وينتهي بالبـاب الشرقي في الجنوب . ويدعو الاجانب هذين البابين « الباب الشمالي » و «الباب الجنوبي»، وهى تسمية تتبع الموقع الجغرافي. ولم يبق اثر لباب المعظم، اما الباب الشرقي فقد ازيلت آثاره ١٩٣٧.

وشارع الرشيد هو عصب الحركة والتجـارة والصخب والعنف كذلك . وتنتشر فيه السيارات المنوعة ، وتسمع منها كل اصناف الابواق ، ولا يفضلهـا في اشاعة الجنون سوى

سيارات بيروت وسواقيها. ويشتد الزحام ساعة الدخول الى السينمات وساعة الخروج منها، وفي بغداد ثمانٍ وثلاثون دارا للسينما ، يعرض اكثرها افلاما مصرية ، او افلاما « ملونة » بغض النظر عن مصدرها. كل هذا وليس في بغداد مسرح واحد، وان تصادف ان قدمت بعض المسرحيات فان ذلك « يجري » على مسرح معهد الفنون الجميلة ، وهو مسرح غير جميل بالمرة ، بل انه مسرح بحاجة الى ... مسرح ! صحيح ان هناك قاعتين كبيرتين بهما مسرح، ولكنهما ملك الدولة، وكذلك حال مديرية المسرح القومي التابعة لوزارة الارشاد. واذا سلمنا بوجود ما يقوم مقام « خشبة » المسرح ، فانه ليس في بغداد فرقة مسرحية واحدة تستطيع ان تقف على قدميها وتقدم تمثيليات ذات قيمة فنية او ادبية. هناك فرق هواة ، ولكنها فرق لا ترضي المواطن المثقف . واذا صح لي ان احكم من خلال تجربتي في العشرين سنة الاخيرة التي عشتها في بغداد ، فانني استطيع القول ان تربة العراق لا تساعد على نمو الممثلين . وليس هذا عيبا مطلقا . ولكن العيب هو ان نحاول الطيران قبل ان نتقن المشي. وهذا ما يحدث فعلا في المحاولات التي نسمع بها بين حين وآخر والتي تهدف الى « نهضة سينمائية عراقية » ، وكأن المسألة مسألة سباق مع الافلام المصرية . والنتيجة ان حفنة الافلام العراقية فشلت فشلا ذريعا ، ما عدا واحدا منها كان نجاحه يعتمد على اسباب فنية واخرى غير فنية .

ولكن تربة العراق التي لا تساعد على نمو الممثلين نجدها تساعد على نمو انواع اخرى من الفنون ، مثل الرسم والنحت والغناء والشعر .

وربما كان الرسم والنحت يتمثلان بطابعها البغدادي العراقي اروع تمثيل في حياة اعظم فنان عرفته بغداد الحديثة ، وفي ما قدمه من انتاج . ذلك هو الفنان الراحل جواد سليم. ففي مستهل عام ١٩٦١ انطفأ قلب كبير احب بغداد واحبته، فخلدها ، ولكنها الى الآن ما خلدته ، الا في قلوب نفر من المثقفين . يجب الا يكون الحديث عن جواد سليم فاضحا عن اعجاب الكاتب بانجازات رائعة في بغداد الحديثة في مجال الفن ، لان حياة جواد سليم واعماله هي تلخيص للحركة الفنية في العراق. ويظهر ان روح الواسطي ، الرسام العراقي الذي عاش في بغداد القرن الثالث عشر، قد عادت الى الظهور ببغداد جواد سليم. وهكذا تعود العنقاء الى الحياة من وسط رماد سبعة قرون عجاف . ففي الثلاثينات كانت بغداد قد استفاقت من نومة الكهف على صوت مدفع الاحتلال البريطاني ، وكانت الحكومة العراقية قد بدأت بارسال البعوث الى اوربا للتخصص بشتى العلوم والآداب والفنون رغم ضيق النطاق. «وكان جواد سليم ممن ارسل الى باريس عام ١٩٣٨ حيث قضى قرابة السنة. وباندلاع الحرب الثانية ، ذهب الى روما في اواخر عام ١٩٣٩ . وعندما دخلت ايطاليا

الحرب ، عاد الى بغداد، وعين مدرسا للنحت في معهد للفنون الجميلة كان قد افتتح حديثا، وفي الوقت نفسه عمل في المتحف العراقي على ترميم التماثيل والتحف الاشورية والسومرية . ولم يكن حينئذ قد جاوز الحادية والعشرين . وبدأ يستجلي ماضي العراق الفني من خلال عمله بالمتحف ، واكتشف بطريقة الصدفة عام ١٩٤١ رسوم الواسطي . وكان من « نعم » الحرب على العراق ان التجأ الى بغداد نفر من البولونيين ، بينهم جماعة من الرسامين المتأثرين بما بعد الانطباعية . فاتصل بهم جواد سليم وصديقه فائق حسن، القطب الثاني لرحى الفن في بغداد الحديثة، واخذ عنهم الكثير، فتطور فهمه للون، وزاد حبه لبلده اذ سمع واحدا من اولئك الرسامين النقاد البولونيين يقول لزملاء جواد سليم ان «الانسان لا يبدع في رسم شيء لا يحبه وانكم لن تكونوا شيئـا اذا لم يكن في قلوبكم الحب الصادق العميق للبلد الذي اعاشتكم تربته » . وهنـا بدأت منحوتات جواد سليم تبرز تأثير النحت النـاتىء الاشوري مضافـا اليه الاهتمام العميق بالطـابع البغدادي ، كما في منحوتة « الاسطى » . وبنهاية الحرب رحل الى لندن للالتحاق بمدرسة سليد، ولما عاد كان اكثر اندفاعا في ابراز الطابع البغدادي والوجه العراقي . كان ووالده واخوته ممن اسس اول جمعية فنية في العراق عام ١٩٤١ ، هي «جمعية اصدقاء الفن » . وبعد ان عاد من لندن اسس عام ١٩٥١ « جماعة بغداد للفن الحديث » . وصادف ان عادت في ذلك التاريخ مجموعة من الرسامين الشباب بعد استكمال تعليمهم في اوربا، فجعلت معروضات جماعة بغداد هذه تخلق مناخا فكريا انتعشت فيه مجموعة من الاتجاهـات الحديثة في الفن وانبعث فيه نقاش حول القيم والابداع والوظيفة التي يقوم بهـا الفنان في المجتمع . وهنا نسمع صوت جواد سليم في بيان « جماعة بغداد للفن الحديث » يقول ان الجماعة تتـألف من رسامين ونحاتين لكل اسلوبه المعين ، ولكنهم يتفقون في استلهام الجو العراقي لتنمية هذا الاسلوب».

وبين ١٩٥١ و ١٩٥٨ كانت هذه الجماعة تقدم انتاجها في معارض اتسمت بالقوة والثقة بالنفس ، وكان اقبال الجمهور مشجعاً جدا ، لما كانت تقدم من صور عن الحيـاة العراقية باسلوب يتعدى حدود العالم المحسوس . وكان جواد سليم على رأس هذه الجماعة ، ولكنه كان دائما يحلم ان يحقق « موضوعا كبيرا » . وكان يريد ان يحقق هذا الحلم في مجال النحت وليس في مجال الرسم ، كما يظهر من مذكراته التي نشرت اجزاء منها في العدد الثامن من « حوار » . فكان ينتظر يومـا يعرض فنه فيه على اكبر عدد ممكن من الناس ، كأن يكون نصبا «في احد الميادين يعطي فكرة نبيلة عالية لكل سائر». وبعد اكثر من عشرة اعوام كان يحلم فيها « بالموضوع الكبير » حققت له حكومة الثورة ما اراد ، فطلبت اليه تصميم « نصب الحرية » لكي يقام في ساحة التحرير، وهي اكبر ساحات بغداد ، واعطي مطلق الحرية في التعبير ، وهو ما لا يحلم به كثير من الفنانين .

واليوم يقوم « نصب الحرية » قبالة جسر الجمهورية ، شامخا امام كل قادم من المطار الى الجزء الجنوبي من بغداد . اربع عشرة مجموعة برونزية من النحت الناتىء ، في كل مجموعة منها عدة اشخاص ، تنتشر على افريز شاهق طوله اكثر من خمسين مترا ، وعلو منحوتاته ثمانية امتار . وكأن المجموعات تفعيلات في بيت من الشعر العربي يقرأ من اليمين الى الشمال ، تروي كل مجموعة منها قصة ترمز الى ماضي بغداد وحاضرها ومستقبلها . اولى هذه المجموعات حصان عربي جامح يستدير جيده نحو ما يتلوه ، وينتهي الشطر الاول بانفجار الثورة وطلوع شمس الحرية ، وتحتها جندي يحطم قضبان السجن ، ثم تهدأ الحركة بعد ذلك في الشطر الثاني حيث يعم الهدوء والازدهار في الزراعة والصناعة .

فبغداد اليوم ، اذاً ، تملك نصبا من اكبر الانصاب في العالم ، وهو اضخم نصب صنعه فنان عراقي منذ اكثر من ٢٥٠٠ سنة ، ورغم ذلك فقد اكمله جواد سليم في سنة ونصف السنة . واذ كانت المنحوتات البرونزية ترفع الى مكانها على الافريز الرخامي ، اصابت الفنان نوبة قلب لم تمهله حتى يرى امله في الحياة يرتفع فوق ارض بغداد .

مفارقات هى الحياة في بغداد اليوم ! فلم يكن في المدينة سوى ثلاثة تماثيل حتى عام ١٩٥٨ ، لا يمثل سوى واحد منها اي معنى يتصل بالوطنية وبالشعب ، والاخير هو الذي بقي قائما بعد ١٤ تموز ( يوليو ) ١٩٥٨ . واليوم نرى خلف « نصب الحرية » هذا تمثالا فخما من الرخام يمثل « الام » ويزين مدخل حديقة الامة ، وهناك تمثال آخر يرمز الى بطولات الشعب والجيش في ثورة ١٤ رمضان ، يقوم في مدخل الجسر المعلق من ناحية كرادة مريم . ولكن « نصب الحرية » العملاق يقوم دليلا على شموخ في الفن قد لا يجود الزمن بمثله بيسر .

وثمة عملاق من نوع آخر ، في مجال آخر من مجالات الفن ، هو مجال الغناء والطرب . ففي عصر الرشيد الذهبي لم تستمع بغداد الى زرياب ، لان اسحق الموصلي كان اثيرا عند الرشيد ، فلما برع تلميذه المولى الفارسي ، لم يعد في القمة متسع لاكثر من واحد ، فشد الاخير رحاله الى الاندلس ليسمع قصورها صوتا اينعت ثماره في قصور بغداد . ولكن بغداد اليوم يشيع فيها نوع من الغناء يقال له « المقام العراقي » هو الآخر مجال تصطرع فيه المفارقات بعنف لكثرة الادعياء بمعرفة اصول هذا الفن . ولكن مطرب العراق الاول محمد القبانجي يجعلك تتساءل ، كما حدث لي ، ترى هل الذي يؤديه القبانجي هو المقام العراقي ام ان المقام العراقي هو الذي يؤديه جميع الآخرين الكثار ، وهو شيء من العويل والنواح والتوجع من مغص في الكبد ، واصوات في احسن احوالها لا تختلف عن النعيب الموسوق ! اذا استمعت الى القبانجي وجدت نوعا من التساوق النغمي يبعث الرعشة في اوتار الحلق

والهفيف في الحنجرة ، وتحس ان الرجل انما يقرأ خطا بيانيا من النغم لا يرتفع او ينخفض الا بميزان ، يعطيك في الاخير صورة صوتية عذبة متقنة ، وبالتالي مطربة ، لان التناغم هو سر الجمال في الموسيقى . وللمقام العراقي قواعد في اداء النغم تعود بشكلها الحالي الى حوالي اربعة قرون ، وهي لا تشبه الغناء العباسي الا بقدر ما تشبه الموشحات الاندلسية هذه المقامات . ولكن الاستاذ القبانجي يعتقد ان المقام العراقي يرجع في اصوله الى الغناء العباسي ، والى ابعد من ذلك حيث يتصل بالغناء العربي الاصيل ، بما في ذلك « الحداء » . ولما كانت المقامات والالحان لم تدون بطريقة فنية بات من الصعب معرفة الفرق بين المقامات العراقية والغناء العباسي. والمقام العراقي يغني نوعين من الشعر : الفصيح والعامي. واكاد اجزم ان الشعر الذي يغنى باللهجة العراقية اكثر تعبيرا عن الطابع البغدادي من كل القريض الآخر ، لانه في الغالب من شعر الفترة المظلمة ومن شعر كتب في العصر العثماني حيث الجناس والطباق واللعب بالكلمات، وهي اساليب اوقع في النفس اذا غنيت بالعامية لسبب اجهله .

وربما كان المقام العراقي تلخيصا لتاريخ العراق من النواحي النفسية والعاطفية . اذ يعتقد محبو المقام ان الطابع الحزين في المقام العراقي مرجعه الويلات والنكبات التي مرت بالعراق في مختلف الادوار . فكان الغناء متنفسا عنها ومعبرا عن تأثيرها في النفس . وربما كان اشد المقامات العراقية حزنا هو مقام « المدمّى » الذي غناه القبانجي في مؤتمر موسيقي بالمانيا ، فما كان من احد المؤتمرين الا ان اعاد تقديمه على البيانو كنموذج رائع للتعبير عن الحزن .

لم اعد اذكر من قال ان الشعر ينبت في العراق ويزدهر في سوريا ولبنان ثم يموت في مصر . ولكن الشعر العربي الذي كان يحتضر في العصور المظلمة ، في جميع بلاد العرب ، انبعث بحياة جديدة وعنفوان جديد من قلب بغداد عام ١٩٤٧ ، والعام يلفظ انفاسه الاخيرة ، تماما مثل تموز الذي قتله خنزير بري فولدت من دمائه شقائق النعمان . كان هذا الانبعاث على يدي شابة بغدادية من عائلة جميع افرادها شعراء ، ومن كلية بجامعة بغداد كانت ولا تزال هي المعين الذى تستقي منه الدولة كلما عطشت في مجالات الثقافة والادارة والحكم . اما الكلية فهي دار المعلمين العالية ( « كلية التربية » الآن ) ، واما الشابة فنازك الملائكة . على يديها وعلى يدي زميل لها بصري المولد بغدادي الثقافة ، هو بدر شاكر السياب ، يرحمه الله . ففي آخر ١٩٤٧ نشرت في بيروت قصيدة للسياب ، ونشرت الملائكة « عاشقة الليل ». هنا وهنا شعر من نوع جديد، اصيل في عروبته ، يحترم الخليل الى المدى ، ولكنه يعيد تنظيم التفعيلات باسلوب اكثر دفقا بالحياة ، وابعد عن الرتابة والملل . ولا اعرف كاتب شعر في العقدين الاخيرين ، يحس بالحياة بمعناها الجديد، يستطيع

ان يتخطى تأثير الملائكة والسياب ، فتأثيرهما في كل مكان . وما هذه الفورة في نقاش « الشعر الحر » و « الشعر العمودي » وشعر « العمود الجديد » الا من نتاج فكر بغدادي، تفتح على الثقافات ، فاغنى ما لديه وقدم الجنى .

وبعد كل هذا ، ما الذي يفعله زيد وعمرو من الناس في بغداد اليوم ؟ الحرب الثانية هزت العالم اجمع ، ولكن بغداد اخذت كفايتها من الهزات في العصور الخوالي . وبعد الحرب كانت الكليات ، وخصوصا كلية الحقوق تقذف بخريجيها الكثار الى مجالات الحياة العامة . ورجل الشارع البغدادي يقضي ساعات فراغه الكثيرة في مقاهٍ انتشرت في كل ركن وحي وشارع في بغداد . يروى ان صحفيا امريكيا زار بغداد بعد الحرب ، وتجول في شارع الرشيد ، مأخوذا بمنظر المقاهي ، فحسب ان بغداد في يوم عيد ، لكثرة من رآهم يجلسون على ارائك تلك « الجايخانات » ( اي دور الشاي ) . ففي الاشهر القليلة الباردة ، تموت المدينة عند الثامنة مساء ، عدا مناطق السينمات في الباب الشرقي ، فهذه تزدحم عند دخول الناس الى السينمات وعند خروجهم ، ثم يغلف الشلل اطراف الحركة في المدينة . وفي اشهر الحر الطويلة يسهر شارع ابي نواس على ضفة دجلة الشرقية ، مبتدئا من الباب الشرقي . يسهر في مقاهٍ تغطي الليل على ما فيها من عيوب وعوز الى النظافة . وكل مقهى يفخر بآلة تسجيل للصوت مع مكبرات اصوات تنشره في كل اتجاه، تزعق باعلى قوتها... ماذا ؟ ام كلثوم ، طبعا ! فقد تغلغل صوت ام كلثوم الى نخاع العظم عند رجل الشارع في بغداد : لا مفر منه في كل زمان ، فانت تسمعه في العشي والآصال ، وفي كل مكان ، بكل معاني هذه الكلمة . وهناك مركزان في شارع الرشيد، هما اول من يذيع آخر اغاني ام كلثوم، بواسطة مكبرة صوت موجهة الى صماخ اذن كل عابر سبيل من عباد الله المساكين.

وعباد الله مساكين فعلا في بغداد . فهذه مدينة لا يفوقها في تكاليف المعيشة في العالم كله سوى فنزويلا، حسب احصاء هيئة الامم المتحدة. ورغم الثروات الحيوانية والنباتية، يظل سعر البيضة في بغداد اغلى منه في نيويورك في عيد الفصح . وهذه نقطة تهم الجميع في بغداد ، حتى اولئك الذين يعيشون على زبدة افكار افلاطون . ورغم دجلة والفرات تظل بغداد « زهرة الصحراء » ، كما يدعوها الذي دعا بغداد « منارة المجد التليد » ، اي ان طابع الواحة هو الذي يميزها . فاذا خرجت من بغداد كيلومترين شرقا او غربا صفعتك الصحراء بكل قحلها . وحتى دجلة العظيم ، بامكاناته الضخمة ، لم يستغلّ في بغداد نفسها . فليس هناك سوى حديقة عامة او اثنتين ، واغلب الشوارع تخلو من الشجر ، كما تخلو المدينة من مقهى او مطعم بوسع المرء ان يصطحب زوجته اليه دون ان يدفع فيه نصف مرتبه الشهري ، فان فعل ، لم يبقَ بين يديه ما يدفع منه اجرة الدار .